التَّشاكُل والجُموح بين الشاعر والمخاطَب في شِعر محمد بن حازم الباهلي وأبي شُراعة

Morality and Insolence between the Poet and the Addressee in the Poetry of Muhammad Bin Hazim Al-Bahili and Abu Shura'a

د. أحمد سعيد محمد

Dr. Ahmed Saeed Mohammed

الملخص

إنَّ الدراسات قد أمعنت في التعرض لظاهرة التشاكل ولاسيَّما في الدراسات الحديثة، ووجدنا أنَّ هذه الدراسات قد عنيت في التشاكل اللغوي والعلاقات اللغوية عبر بنية النص من حيث اللغة أو الصوت أو الإيقاع وغيرها، ولم نكد أن نقف على دراسةٍ تتعرض لمبدأ تشاكُل الشاعر مع النص وما يتسق معه وينسجم وما يعتلق في نفسه من أفكارٍ وآراء، وما يتوافق ويتناغم مع ما يجوب في وجدانه من انطباعات ومدى ائتلافها مع المُخاطب، ولدقة الدراسة وتبيان أبعادها كافة ومعرفة نتائجها على الوجه الذي نصبو إليه ارتأينا أن تكون ظاهرة جُمُوح الشاعر من المُخاطب الركن الثاني لهذه الدراسة، وقد عنينا بجموح الشاعر نفوره من المُخاطب وتمرده عليه ورفضه التلاؤم والتآلف معه وعدم انسجامه في الرؤية والهوى وما لا يتناغم مع ميولاته ووجدانه.

وقد رأينا أن نجعل حدود الدراسة في شاعرين لم تتعرض لهما الدراسات إلَّا القليل منها، بل في شاعرين لم يأخذا مساحاتٍ طيِّبة في الدراسات، وكان الانتقاء للشاعرين (محمد بن حازم الباهلي وأبي شُراعة) علامةً فارقة في هذه الدراسة، إذ لم يأخذا نصيبهما من الدراسات إلَّا زهيدها.

* * *

Abstract:

Studies have dealt extensively with the phenomenon of morphology, especially in recent studies, and we found that these studies have been concerned with linguistic morphology and linguistic relations through the structure of the text in terms of language, sound, rhythm, and others. It is consistent with and consistent with the ideas and opinions that are attached to him in himself, and what is consistent and in harmony with the impressions that roam in himself and the extent of its coalition with the addressee, and for the accuracy of the study and the clarification of all its dimensions and knowledge of its results in the correct manner. With the poet's wildness, his aversion to the addressee, his rebellion against him, his refusal to fit in and harmony with him, his inconsistency in vision and passion, and what is not in harmony with his inclinations and conscience.

We found that we make the limits of the study in two poets to whom the studies were exposed, but only a few, but in two poets who did not take good spaces in the studies, and the selection of the two poets (Muhammad bin Hazim Al-Bahili and Abi Shara'a) was a milestone in this study, who only took their share of studies cheapness.

* * *

المقدمة

لقد تتبعت مسار الأبحاث في ما يخص التشاكل والجموح داخل العراق وخارجه، فوجدتها أنَّها تسير في حقل الدراسات اللغوية، وما أكاد أن أقف على دراسةٍ في جانب الأدب، وإنْ وجدت فإنَّها تكون من وجهة نظر غربية محضة، وما تمليه المدارس الغربية الحديثة، ومن هنا قدحت الفكرة في الذهن بنقل التجربة إلى حقل الأدب القديم من وجهة نظرٍ عربية استناداً إلى ما وَرَدَ من نصوص ومفاهيم في المصادر القديمة، وهنا تكمن أهمية البحث، فضلاً عن استقراء كوامن النصوص الشعرية ومعرفة مدى تشاكل مبدع النص مع المُخاطَب، وهذا أهم أسباب اختيار الموضوع، أمَّا أهم الدراسات التي استأنست بالاطلاع عليها رسالة ماجستير بعنوان: (التَّشاكل والتَّقابل في شعر عبد الله البردوني ديوان من أرض بلقيس أنموذجاً) للطالبتين: التو آمال ومهديد رحمة من الجزائر، وبحث بعنوان: (التَّشاكل والتَّباين في شعر مصطفى الغماري) للدكتور صالح لحلوحي من الجزائر، وبحث بعنوان: (سيمائية التَّشاكل في رواية حمام الدار "أحجية ابن أزرق" لسعود السنعوسي) للدكتورة تنوير بنت أحمد من المملكة العربية السعودية، أمَّا دراستي هذه فهي تعالج مواطن التَّشاكل والتآلف من وجهة نظر مبدع النص بينه وبين المُخاطَب، وما يجده مختلفاً ومنفّراً بينهما.

▪ التشاكل والجُموح لغةً واصطلاحاً:

التشاكل لغةً: الشَّكْلُ: الشَّبهُ، والمِثْلُ، وما يوافقك ويَصْلُحُ لك، تقول: هذا من هواي ومن شكلي، والمُشاكلةُ: المُوافَقَةُ، كالتَّشاكُل، وفيه أشْكَلَةٌ من أبيه، وشُكْلَةٌ بالضم، وشاكِلٌ، أي: شَبَهٌ، وهذا أشْكَلُ به، أي: أشْبَه[1].

أما في المعجمات الحديثة فلا يبتعد المعنى عمَّا سبقه من معجمات المتقدمين، فقد وَرَدَ في لفظ شاكَلَه: شابهَه وماثلَه، وتشاكلا، أي: تشابها وتماثلا[2]، وفي القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾[3]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾[4].

التشاكل اصطلاحاً: لقد ذكر الشريف الجرجاني (٨١٦هـ) أنَّ المُشْكِل(هو الداخل في أشكاله، أي: في

(١) ينظر: القاموس المحيط: الفيروز آبادي: مادة شكل: ١٠١٩.

(٢) ينظر: المعجم الوسيط: مادة شكل: ٤٩١.

(٣) سورة الإسراء: من الآية/٨٤ .

(٤) سورة ص : الآية/٥٨ .

أمثاله وأشباهه، مأخوذ من قولهم: أشْكَلَ، أي: صار ذا شَكْل كما يُقال: أحْرمَ إذا دخل الحرم وصار ذا حُرْمة)[1]، فالتشاكل هو ضربٌ من الائتلاف والتشابه والتوافق.

الجُموح لغةً: جمح الفرسُ، جَمْحاً وجُموحاً وجِماحاً: اعتزَّ فارسَه، وغلبَه، وجمحت المرأة من زوجها: خرجت من بيته إلى أهلها قبل أن يطلقها[2].

وفي المعجم الوسيط: جَمَحَ الفرسُ جَمْحاً وجُمُوحاً وجِماحاً: عتا عن أمر صاحبه حتى غلبه، وجَمحت المرأةُ من زوجها: خرجت غاضبة من بيته إلى أهلها بغير إذنٍ قبل أن يطلقها[3]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَـٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧ ﴾[4].

الجُموح اصطلاحاً: يظهر أنَّ الجُمُوح اصطلاحاً نال نصيبه من الغموض والتعمية والإبهام، إذ نلحظ عزوف الدراسات القديمة والحديثة عنه، وفي نظرات تأملية في التعريف اللغوي نجد أنَّه موازٍ لكلمة الرفض ومشتق من الإعراض، ومجانس للنفور، ومن دلالاته الأخرى: الابتعاد وعدم التلاؤم والانسجام، وممَّا سبق يمكن الاستدلال أنَّ الجُمُوح هو: النفور الذي ينتاب النفس جرَّاء رفضها لما تواجهه من سلوكٍ لا ينسجم مع ما تراه ولا يتواءم مع سلوكها، ولا يتآلف معها في نقطةٍ ما نتيجة عدم التناغم والوئام والتوافق، مِمَّا أثَّر سلباً على النفس وصاحبها فيؤدي إلى الإعراض والجفاء.

▪ الشاعران في ميزان الترجمة:

محمد بن حازم الباهلي: هو أبو جعفر محمد بن حازم الباهلي بالولاء، فهو غير عربي كما تذكر المصادر التي ترجمت له، كان يهجو محمد بن حُمَيْد الطائي[5]، وكان من ألحف الناس إذا سأل، وألحَّهم إذا استماح،

---

(١) التعريفات: الجرجاني: ١٨١.

(٢) ينظر: القاموس المحيط: الفيروز آبادي: مادة جمح: ٢١٦.

(٣) ينظر: المعجم الوسيط: مادة جمح : ١٣٣ .

(٤) سورة التوبة: الآية/٥٧ .

(٥) ينظر: الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٢/٢٣٥. محمد بن حُمَيد الطائي كان قائد الجيوش العباسية، ومن الفرسان الشجعان، وله مآثر أكثر من أن تُحصى، وأخباره مبثوثة في بطون الكتب، ومناقبه تتناقلها المصادر، وقال الشعراءُ فيه الكثير مدحاً ورثاءً، وكان لاستشهاده في معارك الفتنة الخُرَّمية ضجةٌ بين خاصة الناس وعامتهم، لكن الغريب ما في الأمر نجد أنَّ الشاعر محمد بن حازم (الباهلي بالولاء) يقدح فيه، فإذا ثبتت صحة النصوص القادحة فلا نظنُّ ذاك إلَّا لنزعةٍ ما كانت في نفس الشاعر، أو غايةٍ ما كان يرومها. تنظر أخبار محمد بن حُمَيْد الطائي مثلاً في الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٣/٢٤ ، الكامل في التاريخ: ابن الأثير: ج٥/٤٨٧ ، ٤٩١ ، وغيرها من كتب التراجم والأدب والتأريخ.

مع كثرة ذكره للقناعة بشعره، وهو أحد الذين يصفون أنفسهم بضدِّ ما هم عليه[١]، شاعر مطبوع، أكثر شعره في القناعة وذم الحرص والطمع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون، ولد في البصرة ونشأ فيها، وسكن بغداد ومات فيها نحو سنة (٢١٥هـ)[٢]، وفي سنة وفاته خلافٌ، والرَّاجحُ ما أثبتناه.

أبو شُراعة: هو أحمد بن محمد بن شُراعة بن ثعلبة، كان شاعراً جيد الشعر جَزْلَه كالبدوي في مذهبه، وكان جواداً لا يُسألُ ما يقدر عليه إلَّا يَسْمَحُ به[٣]، ويظهر أنَّ ثمة غموضاً يكتنف مولد أبي شُراعة ووفاته، فلم تَجُدْ لنا المصادرُ شيئاً واضحاً ودقيقاً في هذا الأمر، غير أنَّ ابن المعتز في طبقاته يروي أنَّ رجلاً قد لقي أبا شُراعة فسأله: كم أتى عليك من السنين؟ وكان مُسنّاً، قال: اثنتان وتسعون سنة، وقد عاش أبو شُراعة بعد ذلك دهراً طويلاً، إذ عاش إلى أيام الخليفة المتوكل الذي كان يحسن إليه ويقول: هذا مَدَحَ آبائي وأسلافي، ويذكر ابن المعتز أنَّه كان جيد الشعر مليح المعاني صاحب نظر[٤]، وممَّا هو معروف أنَّ الخليفة المتوكل كانت خلافته بين عامَي (٢٣٢ - ٢٤٧هـ)[٥]، وهذا يعني أنَّ أبا شُراعة توفي بين هذين العامين أو ربما بعد ذلك بقليل، على الرغم من أنَّ هناك رواياتٍ أخرى لم نقف على ما يوثقها ويؤكدها.

▪ ملامح عامة عن مادة البحث:

إنَّ ثمة جهوداً مضنية تجشمها الباحث في الوصول إلى المادة الشعرية للشاعرين، بسبب عدم توافر ديوانَي الشاعرين، ونزر الدراسات عليهما، وإمساك المصادر القديمة والحديثة في التعرض لهما وتقديم المعلومات الأدبية وغيرها عنهما، وعلى الرغم من ذلك، فقد ظفرتُ بنسخة ديوان الباهلي صنعة الأستاذ محمد خير البقاعي، الذي قدَّم تكملة وإصلاحاً لنسخة الديوان السابقة تم نشرها في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وكانت هذه النسخة هي أساس دراستنا هذه، وقد قدَّم الأستاذ وليد محمد السراقبي استدراكاً عليه بعنوان: (ديوان الباهلي، محمد بن حازم، تكملة التكملة وإصلاح الإصلاح) وتمَّ نشره في مجلة عالم الكتب السعودية، ولم أقف عند هذه الجهود فحسب، وإنَّما دأبتُ مُلِحّاً في متابعة ما بدأتُ به، حتى توصلت إلى نسخة ديوان الباهلي صنعة الأستاذ شاكر العاشور التي نشرت في مجلة المورد، الذي

(١) ينظر: طبقات الشعراء: ابن المعتز: ٣٠٨.
(٢) ينظر: الأعلام: الزركلي: ج٦/٧٥ .
(٣) ينظر: الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٧/٢٦٣ .
(٤) ينظر: طبقات الشعراء: ابن المعتز: ٣٧٤.
(٥) الخليفة المتوكل على الله: جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد، بويع في ذي الحجة سنة (٢٣٢هـ)، وظلَّ في الخلافة إلى أن توفي سنة (٢٤٧هـ). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢٧٤ ، ٢٧٨ .

عمل مستدركاً عليه ونشره في مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق بعنوان(المستدرك على ديوان محمد بن حازم الباهلي)، فجهدتُ نفسي أيَّما جهد في سبيل الحصول عليه، وكان ذاك والحمد لله (عزَّ وجلَّ)، أمَّا جهودنا مع الشاعر أبي شُراعة فلم تكد تكون أقل ممَّا واجهنا مع صاحبه الباهلي، فقد كانت نسخة (شعر أبي شُراعة القيسي) للأستاذ شاكر العاشور النسخة الأم التي اعتمدنا عليها، وقدَّم الأستاذ العاشور شعر أبي شُراعة مجموعاً في كتابه (عشرة شعراء عبَّاسيون/ج٢)، واستأنسنا بالاطلاع على دراسةٍ للمدرس المساعد(بيان علي عبد الرحيم مظفر) نشرت في مجلة آداب البصرة بعنوان(شعر أبي شُراعة القيسي جمع وتوثيق)، فجزى اللهُ (**سبحانه وتعالى**) الأساتيذَ عنَّا خير ما جزى عالِماً عن متعلم، وأنا لا أدَّعي أنّي قد وقفتُ على كلِّ ما وصلنا من أشعار الشاعرين عبر قرون طوال وأحطت علماً بها، ولكن حسبي أنّي قد جهدتُ نفسي في توثيق المادة والتثبت منها والوصول إليها والحصول عليها، والشروع بهذه الدراسة التي أصبو أن تكون مفتاحاً لدراساتٍ مشابهة أخرى، ومؤشراً إيجابياً في حقلها.

▪ التشاكل بين الشاعر والمخاطَب:

قد يكون الشاعر في بعض الأحايين متشاكلاً مع المخاطَب فكرياً، أو مؤتلفاً معه نفسياً، فنلحظ آثار الأُنس ورمزية التآلف والانسجام، ولعلَّ لهذا التشاكل علامات ودلالات، يبسطها الشاعرُ في النصِّ فتتجلى على هيئة ذبذبات تسفر عن معانيها، والقارئ الحصيف يمكنه أن يتلمَّس مواطنها ويستشف ارتداداتها في النص الشعري، فتنساق كلمات الشاعر حاملةً معها الإيحاءات الدَّالة على ما توطَّن في أعماقه، وترسَّب في أحاسيسه، وهو بذلك يعمد إلى المعاني المكبوتة في نفسه فيخلق منها فضاءات تشاكلية مع المُخاطَب، يقول الشاعر أبو شُراعة[1]: (الخفيف).

يا فتىً ما اختَبَرْتُهُ قَطُّ إلَّا ... زادني الخُبْرُ رغبةً في إخائِهْ
غلبَ الدِّينُ والوفاءُ عليه ... فهو صَبٌّ بِدِينِهِ ووفائِهْ
مُستهامٌ بالحمدِ، مُصْغٍ إلى المَجْ ... دِ، جَوادٌ، لَذَّاتُهُ في عطائِهْ
فإذا سِيلَ كادَ أنْ يتجلَّى ... وجهُهُ الحُرُّ من بشاشةِ مائِهْ

نلحظ أنَّ ثمة تشاكلاً بين المفاهيم القابعة في نفس الشاعر والمُخاطَب، والنصُّ مليءٌ بالمعاني المتشاكلة بينهما، فالرغبة في الإخاء والدِّين والوفاء والكرم وتجلِّي بشاشة الوجه، هذه كلها مفاهيم استوطنت نفس الشاعر واستعذبها ذوقه واستأصلتها أرومته ووجدت لها صدى في قرارة نفسه، فخُلِق فضاءٌ من الائتلاف

(١) شعر أبي شُراعة القيسي: ١٧.

بينهما كلٌّ يأنس بصاحبه ويجد ما يبتغيه فيه، وتكاد أن تكون هذه السمة غالبة على بني البشر، إذ كلُّ إنسانٍ يميل إلى مَن يشاكله في السمات، ويستأنس به ويعتاد عليه، وهذا هو أحد أوجه التقارب والتلاقي، وأحد مواطن التأثر والتأثير، وفي ذلك يقول رسول الله(صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم): (الرجلُ على دين خليلهِ، فلينظر أحدُكُم مَن يُخالِلُ)[١]، والحديثُ الشريف ارتدادٌ لظاهرة التشاكل بين الطرفين، وتبيانٌ لأهميتها وعظمها، واستشرافٌ لمديات التأثير المتبادل وما سيؤول إليه الأمر، ويظهر أنَّ أبا شُراعة ذو حَذَقٍ وفطنة في قضية التشاكل؛ إذ نراه ينتقي إلْفَه وخليلَه بحُنْكةٍ واتزان، ويشاكله عن تأنٍّ ودراية، فهو إنْ أراد التشاكل والتآلف يجده في الجاحظ، ومن تجليات ذلك قوله فيه[٢]:(مجزوء الكامل)

فـــي الـــعـــلـــمِ لـــلـــعـــلـــمـــاءِ إنْ ... يَـــتَـــفَـــهَّـــمُـــوهُ واعِـــــظُ
وإذا نَـــسِـــيـــتَ، وقـــد جَـــمَـــعْ ... تَ عَـــــلا عـــلـــيـــكَ الـــحـــافـــظُ
ولـــقـــد رأيـــــتُ الـــظَّـــرْفَ دَهْـــ ... ـراً مـــا حـــــواهُ الـــلَّافـــظُ
حـــتَّـــى أقـــــامَ طـــريـــقَـــه ... عَـــمْـــرو بـــنُ بـــحـــرِ الـــجـــاحـــظُ
ثـــمَّ انـــقـــضـــى أمَـــــدٌ بـــهِ ... وهـــــو الـــرَّئـــيـــسُ الـــفـــائـــظُ

لقد ساقَ أبو شُراعة صوراً من الائتلاف التي هيمنت على نفسه وتراءت لنا في النص، وهي انعكاس للتوافق بينه وبين المخاطَب(الجاحظ)، ومَن يرصد مظاهر الصلات بين الدال والمدلول يعي فكرة التشاكل ويرتسم أمامه نسيج السياق وأبعاده، دون أن يغفل علائق عناصر النص وما رافقها من إسقاطات الشاعر النفسية، التي وظَّفها من أجل تبيان حالة التشاكل والارتباط، وقد غمرت النصَّ سمةُ الأُنس والسكينة كما يطلق عليها الراغب في مفرداته، إذ يقول عن التشاكل بأنَّه: (الأُنس الذي بين المُتَمَاثِلِيْن في الطريقة، ومن هذا قيل: الناسُ أشْكالٌ وأُلَّافٌ)[٣]، ولعلَّ الشاعر محمد بن حازم الباهلي لا يذهب بعيداً عمَّا ذكرناه، فهو حين يذكر المخاطَب ومدى تشاكله معه يعمد إلى استحضار الأُنس كصفة دائمة يضفيها على المُخاطَب، ومن ذلك قوله في مخاطبة الخليفة المأمون[٤] في طلب حاجة[٥]: (الطويل).

---

(١) سنن أبي داود: ج٢٠٤/٧ ، رقم الحديث (٤٨٣٣).

(٢) شعر أبي شراعة القيسي: ٣٩ .

(٣) المُفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني: ج٣٥٠/١ .

(٤) الخليفة المأمون: عبد الله أبو العباس ابن الرشيد وكنيته أبو جعفر، ولد سنة(١٧٠هـ)، برع في الفقه، والعربية، وأيام الناس، وكان ذا حزمٍ، وعزمٍ، وحلمٍ، وعلمٍ، وأدبٍ، وشجاعةٍ، وسماحة، سار إلى غزو الروم وفتح حصوناً كثيرة، توفي سنة(٢١٨هـ). ينظر: تاريخ الخلفاء: السيوطي: ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٩.

(٥) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٥٢ .

التَّشاكُل والجُموح بين الشاعر والمخاطَب في شِعر محمد بن حازم الباهلي وأبي شُراعة ــــــــــــــــ

أبــا جـعـفـرٍ يـا بْــنَ الـجـحـاجـحـةِ الـغُـرِّ بَــدَتْ حـاجـةٌ، والـحـرُّ يـأوي إلـى الـحُـرِّ
وقــد لَـبِـسَـتْـنـي مـنـك بـالأمـسِ نـعـمـةٌ فـهـل لـك فـي أخـرى عَــوَان إلـى بِـكْـرِ
عـلـى أنَّــه إنْ أمْـكـنـتْ أو تَـعَـذَّرتْ فـإنَّــكَ بـيـن الـشُّـكـرِ مـنِّـي والـعُـذْرِ

يظهر أنَّ التشاكل بين الشاعر والخليفة المأمون قد وصل إلى أقصاه، إذ جعل الشاعر نفسه مشتركاً في السمة نفسها معه وهي سمة (الحر)، ثمَّ إنَّ سمات الخليفة الأخرى متناغمة مع الشاعر حتى غدت لا تختلف في الحالتَين كلتيهما، تلبية حاجته أم تعذُّرها، ونرمق أنَّ ثمة تلازماً بين الشاعر والمخاطَب يسفر عنه النص، وقد تفاعلت نفس الشاعر معه تفاعلاً متكاملاً ومنتظماً؛ إذ كانت زاوية الرؤية لديه واسعة لكنه غفل في نهاية النص عن أنَّ العذر يكون عادةً للخطأ والتقصير، وكان حريَّاً به أن يقول:(فإنَّك بين الشُّكرِ منِّي والشُّكرِ)، وهنا الشاعر يكون في شكرٍ عند تلبية حاجته أو عدمها، وبهذا يكون المأمون بين شُكرين وليس بين شكرٍ وعذر، لتكتمل زوايا الصورة وعناصر التشاكل والائتلاف، والشاعر يمعن في تعرضه لقضية التشاكل والائتلاف مع المخاطَب، ويجعلها قوام العلاقة معه وأساسها، وهو تشاكلٌ لا يستطيع الدهرُ إفساده، ولا الحاسدون من التأثير عليه، إذ يقول واصفاً العلاقة مع أحد أصحابه[1]: (الطويل).

ولـي صـاحـبٌ أُصْـفِـيـهِ ودِّي، وإنَّــه لَـيُـنْـصِـفُـنِـي فـي ودِّهِ ، ويَـزِيـدُ
أمِـنْـتُ صُــرُوفَ الـدَّهـرِ بـيـنـي وبـيـنـه إذا دبَّ، بـيـن الـصَّـاحِـبَـيْـنِ، حـسُـودُ

لقد كان التشاكلُ أحد أهم أدوات قيام النص وانسجامه، وجهازاً فاعلاً وناجعاً لجأ إليه الشاعر؛ لتحقيق ما كانت تصبو له نفسه من الإفصاح عن مكنوناتها العميقة والبوح بأكبر ما يمكن من التشاكلات المشتركة مع المخاطَب وتوكيدها وترسيخها، وليس بالضرورة أن يكون التشاكلُ مع أفرادٍ فحسب، بل قد يكون مسارُ التشاكل عبر التآلف الجمعي بين الشاعر ومخاطَبيه، وهذا ما يُعْرِبُ عنه أبو شُراعة في أكثر من موضع، مستوحياً كل ما يمكن استيحاؤه من أجل المخاطَب الجمعي، كما في قوله مخاطباً أحد كرماء أحفاد قيس بن عيلان[2]: (الطويل)

أُحــبُّ لـكـم قـيـسَ بــنَ عـيـلانَ كـلَّـهـا ويـعـجـبـنـي فـرسـانُـهـا ورجـالُـهـا
ومــالــيَ لا أهــوى بــقــاءَ قـبـيـلـةٍ أبــوكَ لـهـا بــدرٌ، وأنــتَ هـلالُـهـا

نلحظ أنَّ التشاكل وَرَدَ جمعياً عاماً، ثمَّ انتقل الشاعر إلى التخصيص، إذ رسم صورةً تفاعليةً ذات جماليةٍ آسِرة وبأسلوبٍ ساحر، محاولاً تعميق قضية الائتلاف والتجاذب بينه وبين المخاطَب جَمْعاً وفُرادى، وواءمَ

(١) المستدرك على ديوان محمد بن حازم الباهلي: أ.شاكر العاشور: ٨٧٥ .
(٢) شعر أبي شُراعة القيسي: ٥٤ .

مواءمة باهرة بين ألفاظ النص والمعاني التي يرنو إيصالها إلى المخاطَب، وهذا ما أكَّده ابن طباطبا في قوله: (وللمعاني ألفاظٌ تشاكلها، فتحسُنُ فيها وتقبُحُ في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض)[١]، ويدأبُ أبو شُراعة في انتقائه لكلِّ ما هو مناسب في سبيل إظهار تشاكله مع المخاطَب في أنصع وجه وأجمل هيئة، فهو حينما يتطلع إلى الإبانة لظاهرة التشاكل نراه يستجمع قواه الشعرية ولاسيَّما في التشاكل الجمعي، وهذا ما نرصده في مخاطبة بني تغلب، قائلاً[٢]: (الوافر)

وحولي كلُّ أصْيَدَ تَغْلَبيٍّ أبيُّ الضَّيْمِ، مشترِكُ النَّوالِ
إذا حضرَ الغداءُ فغيرُ مُغْنٍ ويُغْني حينَ تَشْتَجِرُ العوالي

يظهر أنَّ الروافد التشاكلية قد تعددت، ومواطن الائتلاف قد تنوعت، إذ الشجاعة، ورفض الضيم والظلم، وإباء النفس وكبريائها وأصالتها، والبسالة والإقدام، هذه المفاهيم مجتمعة جعلت فكرة التشاكل الجمعي تتوطد في ذهن الشاعر، يستغرقها ويتأملها مليَّاً فتنعكس في نصوصه الشعرية بنسقٍ منتظم، وهو يتوق إلى هذا التشاكل والائتلاف النفسي، ولعل هذه هي إحدى أدوات الشاعر في قول الشعر؛ إذ ينبغي(للشاعر أن يتأمل تأليفَ شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائمُ بينها لتنتظم له معانيها، ويتصلَ كلامُهُ فيها)[٣]، وربما يأخذ التشاكل أبعاداً أخرى، فالتشاكل مع المرأة ولاسيَّما الحبيبة تتراءى لنا أشكاله وعلاماته، فالتعلُّقُ بها وبحسنها والتوقُ إلى البقاء قربها والاطمئنانُ لأنسها هواجسُ الشاعر التي لا تكاد أن تنقضي، بين تآلفٍ وانسجام، وبين سَمَرٍ ووئام، تنتابه نوبةٌ من التشاكل والائتلاف، كما يصور هذا المشهد الدرامي الشاعر محمد بن حازم الباهلي وهو يصف حسن الحبيبة وسحرها قائلاً[٤]:(السريع)

بانَ عن الأشكال في حسنِهِ فلم تقع عين على شبهِهِ
يغنيك عن بدر الدجى نورُهُ والبدرُ لا يغنيك عن وجهِهِ
وكم قد تلهَّى بهوى غيرهِ قلبي، فأغراهُ ولم يُلْهِهِ

فالشاعر يستشعر حسنها حتى لا يكاد أن ترى عينٌ شبيهاً له، وتزدان صورتها فيغلب أمرُها البدرَ ونوره، حتى لم يستطع الشاعر أن يسلو هواها بغيرها ولم ينسه تقادم الأيام، فأحدث التشاكل مع الحبيبة إرباكاً لدى الشاعر، وغيَّرت موازين كثيرة وقلبت طاولة القناعة والحياة لديه وأتاحت أمامه فرصة استجماع مواطن التواؤم، وما ذاك إلَّا خُلاصة التشاكل بينهما، (والشَّيءُ لا يحِنُّ إلَّا إلى ما يشاكلُه، وإنْ كانت المشاكلة قد

(١) عيار الشعر: ابن طباطبا: ١٤ .
(٢) شعر أبي شُراعة القيسي: ٥٧ .
(٣) عيار الشعر: ابن طباطبا: ١٢٩ .
(٤) ديوان الباهلي، محمد بن حازم، تكملة التكملة وإصلاح الإصلاح: السراقبي: ٤٢٧ .

تكون في طبقات؛ لأنَّ النفوسَ لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تُسْمِح بمخزونها مع الرَّهبة)[١]، وهو لا يدّخر جهداً في استملاح المرأة وعذوبتها، فهو يصف حسن جاريةً وضيائها، ومدى استطابته إياها وتحيره برقتها، قائلاً[٢]:(مجزوء الكامل)

للهِ جوهرةٌ يَروْ قُ العينَ حُسْنُ صفائها
أبْصَرْتُها فَحَمَدْتُها من قبل حين جلائها
فندمتُ أن لا كنتُ قد تركتُها بغطائها
ورضيتُ واستمتعتُ مـ ـنها زهرَهَا بروائها

مثَّل جمالُ الجارية وصفائها وجه تشاكل الشاعر معها وباعثاً له، وكان سبيكته وصفوته، ولم يكن التشاكل سطحياً، بل تعدَّى ذلك إلى المستوى العميق منه، إذ الندم ببعدها، والمتعة وطيب العيش بقربها، خلقا مناخاً من الأجواء النفسية المتاخمة مع روح الشاعر وهواجسه، بثَّها عبر مفاصل نصِّه الشعري موضحاً جملة الرموز والصور التي قبعت في نفسه، فالتشاكل(يمثِّل أهم إجراء نقدي بوسعه الإحاطة أو الاقتراب من هذه التعالقات الغامضة لما يمتلكه من قدرة على تجميع الرموز المبثوثة على امتداد نسوج النص المتوارية وإعادة تفكيكها)[٣]، وهو فضلاً عن كلِّ ما مضى قد وجَّه حركية النص وانسجامه وتوشيحه بمسحةٍ جماليةٍ فائقة، وقد يُبنى التشاكل أحياناً على الرموز العقلية، التي لا يمكن إدراكها إلا بالعقل، كما نلحظه عند أبي شُراعة؛ إذ يجعل من الكرم والمآثر رموزاً للنص التشاكلي، ويجعلهما قوام خطابه، ومن ذلك قوله حين بلغه أنَّ أخاه قال عنه: إنَّ أخي مجنون، قد أفقرنا ونفسه بكرمه[٤]:(الطويل)

أأنْبزُ مجنوناً إذا جُدْتُ بالذي مَلَكْتُ، وإنْ دافعتُ عنه فعاقِلُ
فداموا على الزُّورِ الذي قُرِفوا بهِ ودُمتُ على الإعطاءِ ما جاء سائِلُ

وكذلك قوله في ذكر مآثره[٥]: (الطويل)

وحِزْتُ بهمْ، لا بل بنفسِ ابنِ حُرَّةٍ مآثرَ يُحصى دونَ إحصائها الرَّمَلُ

لقد كانت الرموز التشاكلية العقلية مهيمنة على الصورة وأبعادها، خَلَقَ الشاعرُ عبرها مناخات جمالية

(١) البيان والتبيين: الجاحظ: ج١/١٣٨.
(٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٢١ .
(٣) جدل الحداثة في نقد الشعر العربي: خيرة حُمر العين: ١٧٠ .
(٤) شعر أبي شراعة القيسي: ٤٩ .
(٥) شعر أبي شُراعة القيسي: ٥٠ .

كانت رابطاً بينه وبين المخاطَب الرمز العقلي (الكرم والمآثر)؛ فالتشاكلات (تعمل على تحقيق أبعاد جمالية وانفعالية وتأثيرية ضمن مناخات حرة تساعد المتقبل في أن يتفاعل مع النص وفق رؤياوية التأويل التي تمنح العمل الفني نوعاً من الحرية في وظيفة الخطاب الشعري)[1]، وربما يأخذ التشاكل منحىً آخراً غير الذي ألفناه، فيرتبط التشاكل بالمكان والرياض ولذة العيش، فضلاً عن أُنس الزمان الذي يباكرهم بأُنسه وبهجته، وفي ذلك يقول محمد بن حازم الباهلي معرّجاً على دير عُمْر كَسْكَر[2]:(البسيط)

فلم نزلْ في رياضِ العمر نَعْمُرُها ... قَصْفاً وتغمُرُنا اللَّذَّاتُ والطَّرَبُ
والزَّهْرُ يضحكُ، والأنواءُ باكيةٌ ... والنايُ يُسْعِدُ، والأوتارُ تصطخبُ
والكأسُ في فلكِ اللَّذَّاتِ دائرةٌ ... تجري ونحنُ لها في دُورِها قُطُبُ
والدَّهرُ قد طُرِفتْ عنَّا نواظرُهُ ... فما تُروِّعُنا الأحداثُ والنُّوَبُ

نلحظ أنَّ الدير وأجواءها قد رسمت ما اكتنف قلب الشاعر، وما جذبه واستوطن أعماقه، ثم أنَّ وصف الرياض الزاهرة والأنواء الممطرة والألحان والكأس ونعيم الأيَّام، كانت كلُّها عوامل جعلت من الشاعر يأتلف أيَّما ائتلاف معها وتتشاكل مشاعره بأجوائها العامة والخاصة، ولعل هذا ما يتطلع إليه ويأمل ديمومته ويتشوَّق له، وتتوق له نفسُه في كل وقت، وإنَّ هذه اللوحة التشاكلية ما كانت لتكون لولا سكون نفس الشاعر بها وأنَّ وجدانه زاخرٌ بمعالمها واستقرارها في أعماقه.

▪ الجُموح بين الشاعر والمخاطَب:

ربما يكون الشاعر أحياناً مختلفاً مع بعض مَن حوله في محيطه العام والخاص، فيحصل الجُموح والتنافر والرفض، وإنَّ هذه المظاهر تنعكس في نصوصه الشعرية، ينفثها عبر تموُّجات من الخطابات الوجدانية التي يفصح عنها في محاولة للتعبير عن هذا الجُموح كردَّة فعلٍ منه إزاءها، وتأتي هذه المظاهر في مواقف متنوعة، منها بكاء الشباب ووصف الشيب وفتن الدنيا وتبدل أحوال الصديق وغيرها ممَّا يزرع النفور والجُموح في القلوب والنفوس، ويؤسس لحالة عدم توافق بين الشاعر ومحيطه، فيأخذ النصُّ وظيفةً تعبيرية تعكس مدى تأثير ذلك في وجدانه والسلوك الذي يلجأ له في سبيل رفضه لهذه المواقف وتمرده عليها، فضلاً عن إرادته في خلق فضاء من البوح بهذا الصراع والنزاع الداخلي الذي تتصارع فيه الإرادات:

---

(١) دلائلية النص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري: د. عبد القادر فيدوح: ٩٧ .

(٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٤٠ . عُمْر كَسْكَر: دير للنصارى يقع شرقي واسط يحيط به بساتين نخيل بينه وبين دجلة فلا يراه القاصد حتى يلتصق بحائطه. ينظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: مج١٥٤/٤ ، ٤٦١.

إرادة الجُموح والنفور والرفض، وإرادة التأقلم والقبول والتوافق ، ولعلَّ البكاء على الشباب يمثل أحد أهم أسباب الصراعات التي تعبث في أحاسيس الشاعر وهواجسه، بين بكاء الماضي الذي لن يعود، والتوافق مع الحاضر الذي تنفر منه النفوس، وقد أدرك الشاعر محمد بن حازم الباهلي هذه الحقيقة طالما أثَّرت به وتغنَّى بها في نصوصه الشعرية، ومن ذلك قوله[1]:(البسيط)

أبكي الشَّبابَ لندمانٍ وغانيةٍ ... وللمغاني وللأطلالِ والكُثُبِ
وللصَّريخِ وللآجامِ في غَلَسٍ ... وللقَنَا السُّمرِ والهنديَّةِ القُضُبِ
وللخيالِ الذي قد كان يَطْرُقُني ... وللندامى وللذَّاتِ والطَّرَبِ
يا صاحباً لم يَدَعْ فَقْدِي له جَلَداً ... أُضِعْتُ بعدكَ، إنَّ الدَّهرَ ذو عُقَبِ

إنَّ الشاعر قد أُدْمِيَ قلبُه بفقد شبابه، ذاك الفَقْد الذي كان سبباً بفقدان المنزلِ الرَّحِبِ الذي كان ملتجأه، والندامى الذين كانوا يملأون عليه الحياة لذَّةً وطرباً، والغواني الذي كان يأنس بقربهن ويَأْلَف الحياة بوجودهن، ثم يعزو كل ذلك إلى الدهر الذي إحدى عاداته وطبائعه أن يصيب أبناءه بالنوائب، وهذا ما أثَّر في نفس الشاعر؛ إذ لم يقف عند مستوى الترقب المجرد العابر، بل تعدَّى ذلك إلى مستويات التأمل والتعمُّق الفكري والنفسي، ويظهر أنَّ الشاعر قد رُسِمتْ في أعماقه سيمياء فَقْد الشباب واستقرَّت في نفسه فكرةُ جُرح الماضي الذي لن يعود، يقول في إحدى بكائياته[2]: (البسيط).

لا حينَ صبرٍ، فخلِّ الدمعَ ينهمِلُ ... فَقْدُ الشَّبابِ بفَقْدِ الرُّوح مُتَّصلُ
سقياً ورَعْياً لأيَّامِ الشَّبابِ وإنْ ... لم يبقَ منه له رَسْمٌ ولا طَلَلُ
جَرَّ الزَّمانُ ذُيُولاً في مَفَارقِهِ ... وللزَّمانِ على إحسانهِ عِلَلُ
وربَّما جَرَّ أذْيالَ الصِّبا مَرَحاً ... وبين بُرْدَيهِ غُصْنٌ ناعمٌ خَضِلُ
بانَ الشَّبابُ وولَّى عنكَ باطلُهُ ... فليسَ يَحْسُنُ منك اللَّهوُ والغَزَلُ
عهدَ الشَّبابِ لقد أبْقَيْتَ لي حَزَناً ... ما جدَّ ذِكْرُكَ إلَّا جَدَّ لي ثَكَلُ

يبدو أنَّ الانكسار النفسي الذي استوطن نفس الشاعر جعله يشعر أن لا شيء يجدي إزاء فَقْد الشباب، فلا من صبرٍ ولا جَلَدٍ على ذلك العنفوان الراحل وأيَّام الصِّبا الناعمة، وهو كالثكلى لا عزاء له إلَّا الحزن والكمد والجزع والاكتئاب، وبذلك فإنَّ النصَّ تأسس على قاعدة الجُموح والنفور ممَّا آلَت إليه أحواله بعدما فَقد شبابه وتقلَّب الزمانُ به، ثم رَسَمَ لوحةً تحاوريةً بينه وبين عهد الشباب عاكساً مدى عُمق شبكة الصراع

(١) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٢٣ .
(٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٨٧ .

الداخلي المتلاحم وهذا يفضي بالضرورة إلى اختلاف الشاعر مع حاضره ومنافحته عن ماضيه، وقد مثَّل الجُموح سيكولوجية خاصة بالشاعر تعكس نفوره ممَّا هو قائم بغية إحداث تغييرٍ ما، وإنَّ جُموح الشاعر وتذمره لا يقف عند مستوى واحد، بل تتجلَّى مستوياته من جوانب عدة، ولاسيَّما النفسية والاجتماعية، إذ انحباس النفس وضيقها وشعورها بالشجن والحسرة، ونفور الغواني منه حتى ليشعر أنَّه غريب في المجتمع، والشاعر أبو شُراعة ليس بأفضل حال مِمَّا عليه الباهلي؛ إذ لا يذهب بعيداً عن مواطن اللوعة والأسى، وهو يبكي على شبابه ومفارقته لحبيبته زينب وحلول الشيب في رأسه، إذ يقول[1]:(الكامل)

طَافَ الخيالُ، ولاتَ حينَ تَطَرُّبِ أنْ زارَ طيفٌ، مُوْهِناً، من زينبِ
طَرَقَتْ، فَنَفَّرَتِ الكرى عن نائمٍ كانت وسادتُهُ ذراعَ الأرْحَبِي
فبكى الشَّبابَ، وعهدَهُ، وزمانَهُ بعد المشيبِ، وما بكاءُ الأشْيَبِ

فأبو شُراعة يستفزه خيال زينب ويرجع به إلى ذكريات الشباب وأيَّامه، ثم لا يجد بُدَّاً من البكاء على عهدٍ تولَّى من بعد ما حلَّ به الشيب والضعف والكهولة، وهو في حالة حَنَقٍ وسُخْطٍ على واقعه المؤلم، ويأسٍ من الحياة، لا يستطيع مسايرتها في ظلِّ فراق الشباب وحبيبته زينب، ممَّا ولَّد جُموحاً ونفوراً عند الشاعر، وخلق مناخاً من التأزُّم السلوكي، من غير ما يتخلَّى عن الذائقة الجمالية في صياغة النص، على الرغم من أنَّه يعاني شعور الاغتراب النفسي، والشاعر محمد بن حازم الباهلي قد مثَّل مَعْلَماً من معالم الذائقة الجمالية في وصف آثار الشيب عليه وارتدادات هذا الشيب على الحبيبة وسلوكها القاهر الذي جعل من الشاعر قتيلاً وذليلاً؛ إذ يقول[2]: (الكامل).

نَظَرَتْ إليَّ بعينِ مَن لم يَعْدِلِ لمَّا تمكَّن طرفُها من مَقْتلي
لمَّا أضاءتْ بالمشيبِ مَفَارقي صدَّتْ صدُودَ مُفارِقٍ مُتَحَمِّلِ
فَجَعَلْتُ أطلبُ وصلَها بتَذَلُّلٍ والشَّيْبُ يَغْمِزُها بألَّا تَفْعَلِي

نلحظ أنَّ مواطن الانكسار قد أحاطت بالشاعر من جوانب متعددة، فنظرة النفور التي تمكنت من الحبيبة بسبب الشيب، وصدودها عنه وتوسُّله بها ورفضها الوصال كلها كانت عوامل جعلت الشاعر في حالة تشظٍّي وحطام، وهذا ما دفعه لمحاولة تغيير للحال التي هو فيها، نافراً منها وثائراً عليها، محاولاً إيجاد بديل لما هو فيه، وهذا ما يحيلنا إلى البحث عن طرق الوصول إلى كُنْه هذه العناصر وأبعادها وتعقيداتها، وربَّما لا يمكننا الوصول إلى مدى تأثير ذلك على الشاعر ودفعه باتجاه الجُموح إلَّا بعد محاولتنا(لفك رموز الخطاب مع

(١) شعر أبي شُراعة القيسي: ٢١ .
(٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٨٢ .

الاهتمام بخلية النص من حيث كونه مولداً لمجموعٍ من العلاقات والرموز، ذات مدلولات لا يمكن الكشف عنها إلَّا من خلال العلاقات الجدلية القائمة بينها)[1]، وفي أدناه رسمٌ توضيحيٌّ يبين العلاقة المتشابكة بين الشاعر والحبيبة والجموح:

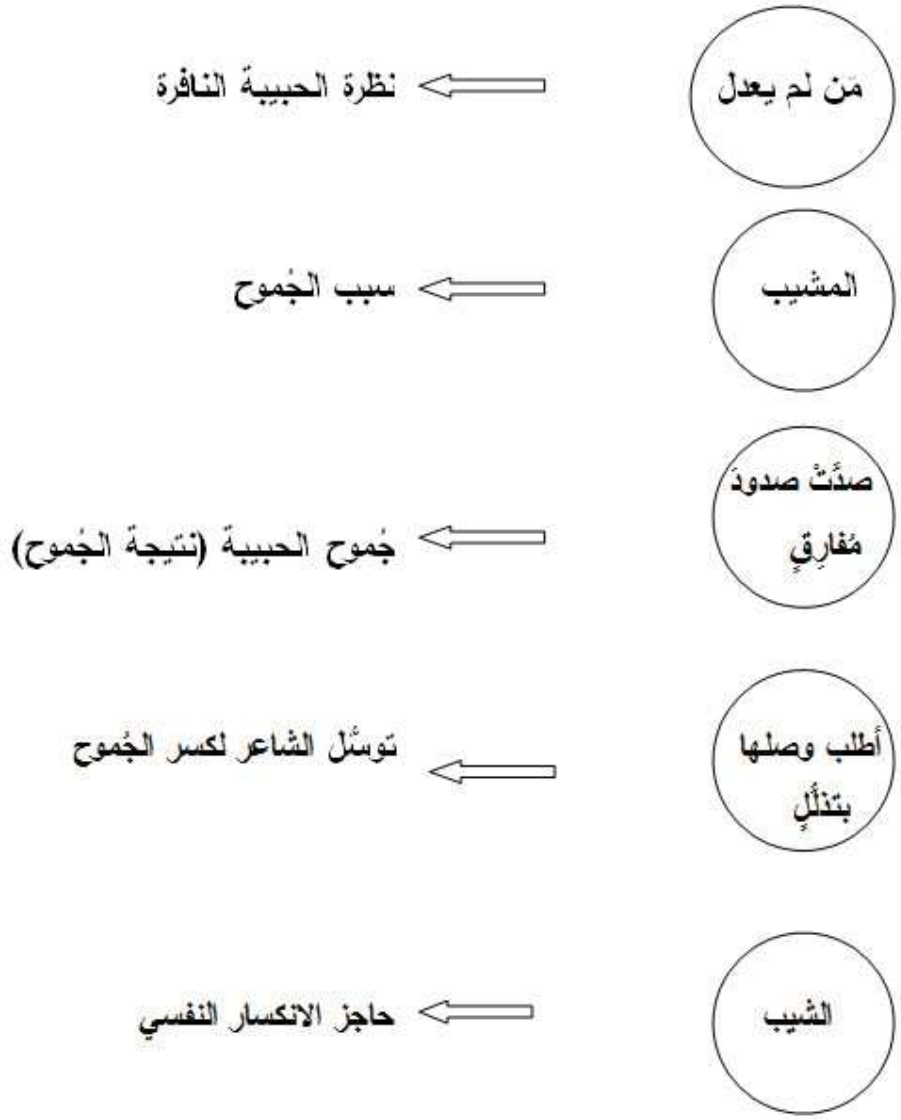

(١) دلائلية النص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري: د.عبد القادر فيدوح: ٧ .

وقد يكون عتاب الشاعر وهوانه أو هوان أحد أفراد أسرته وجهاً من وجوه جُموحه من المخاطَب ورمزاً من رموز نفوره منه، يروى أنَّ ذات يوم سأل سَوَّار بن أبي شُراعة عمَّه حاجةً فردَّه عمُّه فبكى سَوَّار، وكان هذا الموقف مدعاةً لنفور أبي شُراعة من أخيه وجُموحه منه فأنشد قائلاً[1]:(البسيط)

حُبِّي لإغناءِ سَوَّارٍ يُجَشِّمُني ... خوضَ الدُّجى، واعْتِسافَ المَهْمَهِ البِيدِ
كي لا تهونَ على الأعمامِ حاجَتُهُ ... ولا يُعَلَّلَ عنها بالمواعيدِ
ولا يُولِّيهُمُ إنْ جاء يسألُها ... أكتافَ مَعْرَضَةٍ في العيسِ مَرْدودِ
إذا بكى قالَ منهم ذو الحِفاظِ له ... لقد بُليتَ بخُلْقٍ غيرِ محمودِ

لقد مثَّل موقف العم باعثاً لجموح الشاعر، الذي آثرَ على نفسه الرحيل وقطع المفاوز ليل نهار على الرغم من استشعاره لخطر المغامرة، وكانت هذه المغامرة بوابة الجُموح وإحدى رمزياته المبثوثة في نفس الشاعر والأكثر ارتباطاً بالحياة الخاصة لأبي شُراعة، وكأنَّنا في أحداث درامية مثَّل ذروتها الرحيل والجُموح اللذين عبَّرا عن أفكار الشاعر وعواطفه في وصف الأحداث، وهي كلها تشكل رؤية الشاعر الممتدة في تجاه واحد والخاضعة لشعور موحد، وقد أتاحت هذه العوامل للشاعر إمكانيات كبيرة للتعبير، ولم يَسْلم الشاعر محمد بن حازم الباهلي من الجُموح في موقف عتاب، فقد طلب حاجةً من أحدهم وكانت المماطلة حاضرة في الجواب، فعاتبه في قصيدةٍ وفيها يقول[2]: (الوافر)

سألْتُكَ حاجةً فَطَوَيْتَ كَشْحَاً ... على رَغْمٍ، وللدهرِ انقلابُ
وسُمْتني الدنيَّةَ مُسْتَخِفَّاً ... كما خُزِمَتْ بآنفِها الصعابُ
كأنَّكَ كنتَ تطلُبني بثأرٍ ... وفي هذا لك العَجَبُ العُجابُ
فقد عجَّلْتَ لي من ذاكَ وَعْداً ... وأقربُ من تناولهِ السَّحَابُ
وكلٌّ سوف يُنْشَرُ غيرَ شكٍّ ... ويحْمِلُهُ لطيَّتهِ الكتابُ

يلحظ المتأملُ الحركةَ الدرامية في النص والمحاورة الشعرية بين الشاعر والمخاطَب، ومَن يقف على تخوم النص يجد النفورَ مختفياً وراء ألفاظ ودلالات العتاب والتوبيخ، وهو يترجم أحاسيس داخلية وانفعالات وجدانية تنمُّ عن قلقٍ وتوتر، وقد أخذت هذه المفاهيم تنعكس في واقع الشاعر، وبدأت معاناته تنمو في حركة تصاعدية من بعد ما جمحت نفسُه من المخاطَب ومن عُتمة مُفارقاته مِمَّا دفع بالشاعر للنزوع إلى النفور، وتبنِّي الأفكار الموسومة بطابع التذكير والوعيد يبثُّها من قلبٍ محزونٍ ونفسٍ أناخت

(١) شعر أبي شُراعة القيسي: ٢٥ .
(٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٣٣ .

عليها الهموم وأطبقت عليها أجواء المماطلة والتزييف، وبذلك تتضح علاقة التضاد التي هيمنت عليها الثنائيات المتضادة بين الطرفين، إذ طلب الحاجة والإعراض، العتاب والاستخفاف، التوبيخ والعنف، الوعد واستحالة تحقيقه، التذكير والتجاهل، وكأن العلاقة أصبحت تركيبة من المتضادات المتصارعة، معتمدة على التجربة الشعورية المستندة إلى الصدق الفني في النص، وقد لجأ الشاعر إلى الرمز الذي يمثل أحد أهم أدوات التعبير الشعري، وربما يفضي الرمزُ أحياناً إلى الإيحاء الذي يضفي على الصورة فاعلية كبرى ويجعلها لوحة فنية تحمل رموزاً متنوعة، فصورةُ طَي الكشح رمزٌ للهجر والممانعة والرفض، وصورةُ انقلاب الدهر رمز لاستشراف المستقبل وكيف أنَّ الزمان ستدور أحداثه، فهي انعكاس للوم والعذل، وصورةُ خَزْم الأنف رمز لشدة ما لاقاه الشاعر من المُخاطَب، وصورةُ السَّحاب إيحاءٌ لبعد المنال واستحالة حصول الشاعر على ما يبتغيه، أما صورة حَمْل الكتاب من قِبل صاحبه ونشره ذات يوم، فربَّما أراد الشاعر منها الترميز والإيحاء لقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾[1]، وهكذا نجد النصَّ يزخرُ بالرموز والإيحاءات المتنوعة التي لجأ إليها الشاعر من أجل إبراز ما أثقلته الحياة به، والشاعر أبو شُراعة لم يكن بعيداً عن مواقف مشابهة ولاسيَّما مواقف الحسد والحُسَّاد، فقد بَلَغَه أنَّ رجلاً يقول عنه: إنَّما مَعاشُ أبي شُراعة من السُّلطان ورِفْدِهِ، ولولا ذاك لكان فقيراً، فقال ردّاً عليه[2]: (البسيط).

عَيَّرْتَني نائِلَ السُّلطانِ أطْلُبُهُ ... يا ضَلَّ رأيُكَ بين الخُرْقِ والنَّزَقِ
لولا امتنانٌ من السُّلطانِ تَجْهلُهُ ... أصْبَحْتُ بالسَّوْدِ في مُقْعَوْعِسٍ خَلَقِ
رَثَّ الرِّدا بين أهدامٍ مُرقَّعةٍ ... يَبيتُ فيها بلَيْلِ الجائِعِ الفَرِقِ

إنَّنا نجد أنفسنا إزاء صورة زاخرة بالجُموح والنفور، مليئة بالعنف القابع في نفس الشاعر، تخبئ ما بين سطورها كلاماً كثيراً يحمله هاجس مبدع النص، الذي تنبعث في وجدانه موجة حزن عميقة، ويحمل شعوره اشمئزازاً لسلوك المخاطَب، مِمَّا يحيلنا إلى حجم التنافر بينهما، واصفاً المخاطَب بصفات الخرق والنَّزق والجهل، ثم إنَّ لجوء الشاعر إلى الرمز المكاني (السَّوْد) دلالةً على الغربة والوحدة وفقر الحال ورثاثة المنظر والبُعْد عن الأهل والأقارب، وهنا جاءت فلسفة الشاعر مليئة بالحركة المصاحبة للزجر والردع، وهذا ما ولَّد جُموحاً وصراعاً في النص الذي هو ارتداد الجُموح والصراع داخل الشاعر، فضلاً عن صراع المعاني والألفاظ

(١) سورة الإسراء: الآيتان/ ١٣-١٤ .
(٢) شعر أبي شُراعة القيسي: ٤٧ .
السَّوْد: جبل بنجد، وقيل: قرية ومعادن باليمامة.
ينظر: معجم البلدان: ياقوت الحموي: مج٣/ ٢٧٧ .

ومدى ملائمة إحداهما الأخرى، وكيفية اختيار الشاعر لهما اختياراً دقيقاً موفَّقاً، وهذه المزية مهمة جداً كما يذكر ذلك الجاحظ حين يقول: (وكلُّ شاعرٍ في الأرض وصاحبِ كلامٍ موزونٍ؛ فلابدَّ من أن يكون قد لهجَ وألف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرها في كلامه وإن كان واسعَ العلم غزيرَ المعاني، كثيرَ اللفظ)[1]، والشعراء يعمدون عادةً إلى التعبير عمَّا يجول في خواطرهم بما يناسب الموقف الذي هم إزاءه، فالجُموح والنفور عند محمد بن حازم الباهلي يصل أوجَّه مع الشامتين، لذلك يتراءى لنا الرد الصارم من الشاعر والوعيد الذي سيُنْجَز ذات يوم، إذ يقول[2]: (الطويل)

فيا شامتاً مهلاً، فكم من شماتةٍ تكونُ لها العُقْبى لقاصمةِ الظَّهْرِ

لقد استهلَّ الشاعرُ البيتَ مخاطباً الشامت بصرخاتٍ وزفراتٍ عبر حرف النداء، فقد وجد في حرف النداء ملاذاً نفسياً ملائماً لإيصال صرخاته وموجات جموحه من المُخاطَب، مُطْلِقاً تحذيراته من عاقبة الشماتة ونتائج هذا السلوك، مُسْتَشْرِفاً بما ستؤول عاقبتهم من نَدَمٍ وحسرة، وكأنَّ الشاعر يرسم أمامنا لوحة العلاقة الارتدادية بين الحلقات الثلاثة(الشامت، الشماتة، المشموت به) ويصورها أنَّها عملية تغذية راجعة، كما في المخطط الآتي:

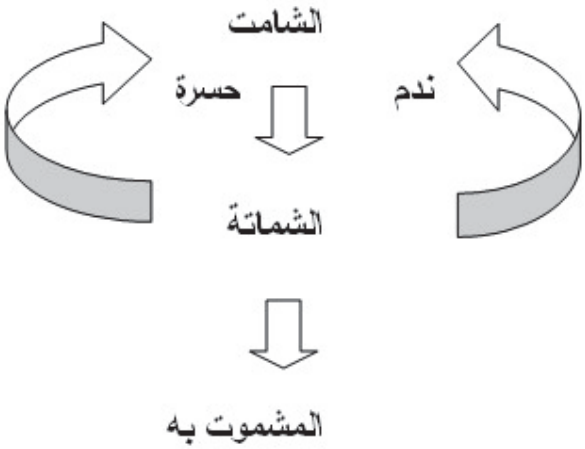

وهي لوحة بانورامية استشرافية رسمها الشاعر وتنبَّأ بما سيكون؛ لأنَّ الاستشراف يهدف إلى الاستباق في معرفة حدثٍ ما لاحقٍ مغيَّبٍ انطلاقاً من معطياتٍ سابقة، وتتضح صورة الاستشراف بالنظر إلى الدلالات الزمنية القادمة التي يلجأ إليها الشاعر فتمنحه القدرة على تبصر الآتي والتنبؤ به واستشعار ما سوف

(١) الحيوان: الجاحظ: ج٣/٣٦٦ .

(٢) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٥٤ .

يفضي به الواقع ذات يوم، والشاعر يصنع عبر هذه الخطابات جوَّاً من الجُموح ويرسم الصورة التنافرية التي استوطنت كنهه، كما رسمها أبو شُراعة في جُموحه من حاجب أحمد بن المُدَبِّر[1]، وكان الحاجبُ جُرمقياً، إذ يقول[2]:(الوافر)

حِجابُ ابنِ المُدَبِّرِ كِسْرَوِيٌّ ... كذاكَ حِجابُ كسرى أرْدَشِيرِ
شَهِدْتُ بأنَّه من نَسْلِ كسرى ... سَلُوهُ هل شَهِدْتُ له بِزُورِ؟
كفاكَ شهادتي بالحقِّ، لولا ... تَضاحُكُ مَنْ أرى حَوْلَ السَّريرِ
فإنْ يكن المُدَبِّرُ جَرْمقيَّاً ... فلستُ بذاكرٍ أهلَ القبورِ

لم يكن اختيار أبي شُراعة لهذا الموقف ليكون موضوع نصه الشعري اعتباطاً، وإنمَّا قصد إليه ليعمق دلالة جموحه من شخوص النص، ولاسيَّما أنَّ علاقته بهؤلاء الشخوص كانت متردية بل وصلت إلى طريق مغلق، ممَّا حدا به إلى اجترار ماضيهم والرجوع إلى أصولهم وانتماءاتهم، إذ لم تقتصر نظرته على الواقع فحسب، وإنَّما اتجه صوب التراث يأخذ منه ما يتوافق مع رؤيته، فأتى بكسرى للإيحاء بالسوء والازدراء ووضاعة الصنيع، فضلاً عن دلالات البعد السياسي وقمع السلطة واستبداد الحاكم، وبذلك فإنَّ الجُموح في النص جاء نتيجة تفاعلات متنوعة بين المدلول التراثي والمدلول الواقعي، ولعلَّ التقاء المدلولين التراثي والواقعي (كسرى والحاجب) عند نقطةٍ معينة هو الذي دفع الشاعر إلى توظيفهما لخدمة المعنى المراد التعبير عنه، ولنا أن نتأمل أنَّ أحد أبعاد المعنى هو تحقيق الإرادة ورفض العبودية وكل مظاهر الاستلاب، وهكذا راحَ الشاعر يبحث عن رموز تاريخية تتيح له التعبير عن تجربته شكلاً ومضموناً، فضلاً عن إتاحتها له اتساع أفق التعبير، ويبدو أنَّ الشاعر محمد بن حازم الباهلي لم تكن حاله مع الناس بأفضل مِمَّا لاقاه أبو شُراعة من الحاجب، فهو يحكي تبدُّل حالهم معه بعد ما كان ينظر إلى كلِّ واحد منهم بأنَّه من أفاضلهم، إذ يقول[3]: (مجزوء الرمل).

قد بَلَوْتُ النَّاسَ طُرَّا ... لم أجدْ في النَّاس حُرَّا
صار حلوُ النَّاس في العي ... نِ إذا ما ذِيْقَ مُرَّا

(١) أحمد بن المُدَبِّر: هو أحمد بن محمد بن عبيد الله المدبر الكاتب، تقلَّد ديوان الخراج والضياع في زمن الخليفة المتوكل، أصبح والياً على الشام وقتله أحمد بن طولون نحو سنة(٢٧٠هـ)، وقيل: سنة(٢٦٥هـ). ينظر: الوافي بالوفيات: الصفدي: ج٢٦/٨ . الجرامقة: وَرَدَ في تاج العروس أن الجرامقة قومٌ من العجم صاروا بالموصل في أوائل الإسلام. ينظر: تاج العروس في جواهر القاموس: الزبيدي: ج١٢٥/٢٥ ، مادة (ج ر م ق).

(٢) شعر أبي شُراعة القيسي: ٣١ .

(٣) ديوان محمد بن حازم الباهلي: البقاعي: ٥٥ .

إنَّ الواقع المرير الذي يعيشه الشاعر في المجتمع رسَّخ في أعماقه أشد أنواع الجُموح والنفور، والهروب من الناس بعيداً، ولاسيما أن الواقع لديه يستند إلى تجارب حقيقية مُنطلِقاً من رؤية واعية استطاعت أن تهضم كل ما حفلت به التجارب وتستخلص عُصارتها لتخرج بمفاهيم جديدة كان أولها الجُموح من الناس والابتعاد عنهم، وربَّما منحت التجربةُ الواقعية الشاعرَ فسحةً أكبر لتكثيف الصورة والمعاني وإشاعة التصوير الحسي عبر لجوئه إلى الحواس (العين، التذوق) ومن ثم استعانته بالتضاد أو الطباق(حلو/مُر)، ومن هنا فإنَّ وسائل التعبير قد تعددت أمام الشاعر على الرغم من صغر حجم النص، ولا غرو في ذلك، فهو يواجه الخيبة والانكسار وتفاقم المأساة كلما اصطدم بتجربة جديدة.

إنَّ أحد أسباب الجُموح الذي يستوطن نفس الشاعر، والنفور الذي يسكن في وجدانه هو التباين النفسي والفكري بينه وبين شخصٍ ما لسببٍ ما يولِّد حاجزاً بينهما، وفجوةً تؤسس لحالةٍ من الصراع الذي يقتضي وجود مُتَضادين على الأقل، والذي كان يعنينا في البحث هو إبراز دوافع هذا التباين ونتائجه.

* * *

الخاتمة .. والنتائج

• إنَّ الدراسات التي عنيت بالتشاكل، كانت من الجانب اللغوي وبنية النص وغيرها في ما يتعلق بالعلاقات اللغوية داخل النص، ولم نكد أن نقف على دراسةٍ تتعرض لمبدأ تشاكُل الشاعر مع النص وما يتسق معه وينسجم مع ما يعتلق في نفسه من أفكارٍ وآراء، وما يتوافق ويتناغم مع ما يجوب في وجدانه من انطباعات ومدى ائتلافها مع المُخاطب، وعلى هذا الأساس كانت هذه الدراسة التي نظنُّ أنَّ فيها من الجِدَّة ما هو بائن وواضح.

• عبَّر الجُموح عن نفور الشاعر من المُخاطب وتمرده عليه ورفضه التلاؤم والتآلف معه وعدم انسجامه في الرؤية والهوى والميولات والوجدان.

• كانت حدود الدراسة في شاعرين لم تتعرض لهما الدراسات إلَّا القليل منها، بل في شاعرين لم يأخذا مساحاتٍ طيّبة في الدراسات، وكان انتقاءُ الشاعرين علامةً فارقة في هذه الدراسة، إذ لم يأخذا نصيبهما من الدراسات إلَّا زهيدها.

• عرَّفنا الجُمُوحَ تعريفاً خاصَّاً بنا وهو: النفور الذي ينتاب النفس جرَّاء رفضها لما تواجهه من سلوكٍ لا ينسجم مع ما تراه ولا يتواءم مع سلوكها، ولا يتآلف معها في نقطةٍ ما نتيجة عدم التناغم والوئام والتوافق، مما يؤثِّر سلباً على النفس وصاحبها فيؤدي إلى الإعراض والجفاء.

• مثَّل التشاكلُ توافقاً فكرياً وائتلافاً نفسياً بين الشاعر والمُخاطَب، فتظهر آثار الأُنس ورمزية التآلف والانسجام بينهما، وتتجلى علاماتها ودلالاتها في النص.

• تنوعت مواطن التشاكل عند أبي شُراعة، فأحياناً تأتي فُرادى كما هي الحال مع صديقٍ، أو عالِمٍ مثل الجاحظ، وفي أحيانٍ أخرى يلجأ إلى التشاكل الجمعي مثل تشاكله مع قيس بن عيلان وتغلب، وأحياناً تكون المشاكلة مع صفات عقلية كالكرم والآثار.

• إنَّ مواطن التشاكل عند محمد بن حازم الباهلي قد تنوعت أيضاً، فأحياناً تكون مع خليفة كالمأمون، أو صديق، أو حبيبة، أو جارية.

• تنوع ألوان الجُموح والنفور عند أبي شُراعة، فقد جاء الجُموح من الشيب والأخ والشامتين وحجاب الولاة.

• تنوع الجُموح عند محمد بن حازم الباهلي، بين بكاء الشباب، والتذمر من الشيب، ومن الشامت أو سوء خلق صديق أو عامة الناس.

التَّشاكُل والجُموح بين الشاعر والمخاطَب في شِعر محمد بن حازم الباهلي وأبي شُراعة

• إنَّ الجُموح يؤسس لحالة عدم توافق بين الشاعر ومحيطه، فيأخذ النصُّ وظيفةً تعبيرية تعكس مدى تأثير ذلك في وجدانه والسلوك الذي يلجأ له في سبيل رفضه لهذه المواقف وتمرده عليها.

• في حالة الجُموح، تكمن إرادة الشاعر في خلق فضاء من البوح بالصراع والنزاع الداخلي الذي تتصارع فيه الإرادات: إرادة الجُموح والنفور والرفض، وإرادة التأقلم والقبول والتوافق.

• لقد مثَّل الجُموح سيكولوجية خاصة بالشاعر تعكس نفوره مِمَّا هو قائم بغية إحداث تغييرٍ ما، وإنَّ هذا الجُموح والتذمر لا يقف عند مستوى واحد، بل تتجلَّى مستوياته من جوانب عدة، ولاسيَّما النفسية والاجتماعية.

* * *

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة الخامسة عشرة/ ٢٠٠٢م.

٢. البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، مطبعة المدني- المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة السابعة، ١٤١٨ه-١٩٩٨م.

٣. تاج العروس في جواهر القاموس: السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني الزَّبيدي (١٢٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى حجازي، راجعته لجنة فنية من وزارة الإعلام الكويتية، سلسلة التراث العربي تصدرها وزارة الإعلام في الكويت، مطبعة حكومة الكويت ، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٤. تاريخ الخلفاء: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي(٩١١هـ)، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٥. التعريفات: علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني (٨١٦هـ)، تحقيق ودراسة: محمد صدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير- القاهرة، (د.ت).

٦. جدل الحداثة في نقد الشعر العربي: خيرة حُمر العين، منشورات مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق سوريا، الطبعة الأولى/١٩٩٧م.

٧. الحيوان: الجاحظ: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٨٥هـ_١٩٦٦م.

٨. دلائلية النص الأدبي، دراسة سيميائية للشعر الجزائري: د.عبد القادر فيدوح، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية في وهران جمهورية الجزائر، الطبعة الأولى/ ١٩٩٣م.

٩. ديوان الباهلي، محمد بن حازم، تكملة التكملة وإصلاح الإصلاح: وليد محمد السراقبي، مجلة عالم الكتب، تصدر عن دار ثقيف للنشر والتأليف، الرياض المملكة العربية السعودية، المجلد الخامس عشر، العدد الرابع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

١٠. ديوان محمد بن حازم الباهلي: صنعة: محمد خير البقاعي، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق - سوريا، ١٤٠١-١٤٠٢هـ /١٩٨١ ١٩٨٢م.

١١. سنن أبي داود: أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي(٢٠٢هـ- ٢٧٥هـ)، حققه وضبط نصه وخَّرج أحاديثه وعلَّق عليه: شعيب الأرنؤوط، محمد كامل قره بللي، عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، دمشق سوريا، الطبعة الأولى/١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

١٢. شعر أبي شُراعة القيسي، صنعة: أ.شاكر العاشور، تموز للطباعة والنشر والتوزيع دمشق، الطبعة الأولى/٢٠١١م.

١٣. طبقات الشعراء: عبد الله بن المعتز(ت٢٩٦هـ)، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثالثة، ذخائر العرب، مطابع دار المعارف، ١٩٧٦م.

١٤. عيار الشعر: محمد أحمد بن طباطبا العلوي(ت٣٢٢هـ)، شرح وتحقيق: عباس عبد الساتر، مراجعة: نعيم زرزور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط٢، ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ.

١٥. القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

١٦. الكامل في التاريخ: لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ)، راجعه وصححه: د.محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٧. المستدرك على ديوان محمد بن حازم الباهلي: أ.شاكر العاشور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج٨٢، الجزء الرابع.

١٨. معجم البلدان: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(ت٦٢٦هـ)، دار صادر- بيروت، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

١٩. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث في جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

٢٠. المُفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد(ت٥٠٢هـ)، تم التحقيق والإعداد بمركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، (د.ت).

٢١. الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٧٦٤هـ)، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناووط تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

* * *